المدرسة الهندية

في عام ١٥٢٦م استولى بابر حفيد تيمورلنك على مدينة دلهي، واستطاع بذلك أن يؤسس الإمبراطورية المغولية التي حكمت الهند منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٥٧م وفي عهد هذه الأسرة نشأت المدرسة الهندية، وبفضل رعاية أباطرتها نمت وازدهرت، غير أن عمرها لم يطل إذ أن الإمبراطور أورنجزيب الذي حكم من ١٦٥٩م إلى ١٧٠٧م كان شديد التمسك بتعاليم الدين منصرفاً عن تعضيد المصورين، فاضمحل التصوير في عهده، وقضى عليه غلبة التأثير الأوربي واتباع الأساليب الغربية.

ومن الملاحظ أن تاريخ هذه المدرسة وتطورها بمعنى أوضح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعهود أباطرة الأسرة وأن كل عهد من هذه العهود له صفاته الخاصة به.

والمعروف أن هذه المدرسة كانت متأثرة في أول عهدها بالأساليب الإيرانية فقد ذكر أن بابر أحضر معه إلى الهند أحسن النماذج التي أمكنه جمعها من مكتبات أجداده التيموريين. كما أحضر ابنه وخليفته عقب رجوعه إليها من منفاه بإيران كلاً من ميرسيد علي وخواجه عبد الصمد الشيرازي وكان قد تعرف عليهما أثناء إقامته بتبريز، وعهد إليهما الإشراف على المصورين الهنود البالغ عددهم خمسين مصوراً والذين عكفوا على توضيح قصة الأميرة حمزة بالصور فضلاً عن اشتراكهم بأنفسهم في رسم بعض موضوعاتها.

وكذلك فعل أكبر الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة. فقد كان راعياً للفنون، يشرف بنفسه على شئون الفنانين والمصورين ويبدي لهم ملاحظاته ويزودهم بإرشاداته، وكانت تعرض عليه أسبوعياً أعمالهم ويقرر المكافأة للمجد المحسن منهم في عمله أو يزيد في مرتبه، وهذا بخلاف المرتب الشهري الذي كان يدفعه لجميع المصورين.

وقد جمع أكبر في مكتبته أجمل النماذج وأبدعها من إنتاج المصورين الإيرانيين كهبزاد وأقاميرك، وزين جدران قصره بالرسوم والنقوش الإيرانية، وأسس مجمعاً لفنون الكتاب ضم إليه حوالي ٧٠ فناناً من الهنود يعلمون تحت إشراف المصورين الإيرانيين، ومنهم عبد الصمد الذي وصل في عهد أكبر إلى مرتبة رفيعة إذ قلده رياسة السكة في فتح بور سكري العاصمة الجديدة، وأطلق عليه لفظ شيرين قلم أي القلم الجميل ومنهم أيضاً ميرسيد علي وفروخ بيك وخسرو قلى وغيرهم.

واشتهر من الهنود دارم داس ونارسنغ وبازوان ولال، ونلاحظ أن عدداً كبيراً من المصورين الهنود كانوا من الهندوس أصحاب التقاليد الفنية العريقة التي تتمثل لنا في النقوش البوذية في كهوف أجانتا وغيرها. ولذلك نلاحظ، التقاليد الهندية المحلية ظلت قائمة جنباً إلى جنب مع التقاليد الإيرانية بل قدر لها أن تتغلب عليها في نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

وأوضح مثال لغلبة التقاليد المحلية نراه في رسوم السيدات. وفي عهد جهانجير خليفة أكبر يتخلص التصوير الهندي من التأثيرات الإيرانية، وتصبح له صفاته المميزة الواضحة، ومن أهمها الملابس

الهندية الطراز ولا سيما لباس الرأس، وتفضيل رسم الوجه رسماً جانبياً مع إكسابه شيئاً من التجسيم والحيوية (شكل ١٢) ومن هذه المميزات أيضاً العمائر فهي هندية الطابع ورسمها رسماً يتفق في كثير من الأحيان مع قواعد المنظور التي احترمها المصور الهندي احتراماً أكثر من باقي المصورين المسلمين لها ولم يقتصر اتباعه لها على رسم العمائر التي تبدو في الأجزاء البعيدة من خليفة الصورة بل وفي التكوين العام للصورة أيضاً.

(شكل ١٢) شاه جبهان جالس على عرشه –
المدرسة الهندية المغولية القرن ١١هـ - ١٧م

ومما يميز الصور الهندية ألوانها الهادئة الداكنة، فلا نجد لها ذلك البريق واللمعان اللذين نشاهدهما في التصوير الإيراني أو التباين والشذوذ الموجودين في ألوانه.

ومن أوجه النشاط الفني التي يمتاز بها التصوير الهندي رسوم الأشخاص والطير والحيوان (شكل ١٣) والنبات. فقد فاق فيها غيره من مدارس التصوير الإسلامي ونبغ فيها عدد كبير من المصورين. ويرجع الفضل في ذلك إلى كل من الإمبراطور أكبر الذي أمر بعمل مرقعة تحتوي على صور كبار رجال الدولة وإلى الإمبراطور جهانجير الذي كان مغرماً بالمناظر الطبيعية الجميلة وتسجيل رسوم الحيوان والطير والنبات بدقة. وكان يكلف المصورين بعمل هذه الرسوم، كما كان يكلفهم بتسجيل الأحداث في حياته اليومية أينما ذهب ولذلك كان يستصحب معه عدداً من المصورين.

ومما يلاحظ، الصور التي عملت في عهد جهانجير لا يحمل أغلبها توقيعات الفنانين الذين رسموها بعكس الحال في عهد أكبر، وقد وصل إلينا أسماء بعض فناني عصر جهانجير مثل بشنداس، وفروخ بيك، ومنصور الذي أسماه نادر العصر، وأبو الحسن الذي أطلق عليه لقب نادر الزمان، ومراد، ومنوهر، ومحمود نادر السمرقندي، ومحمود مراد.

(شكل ١٣) رسوم غزلان - من عمل المصور مراد -
المدرسة الهندية المغولية القرن ١١هـ - ١٧م

وينفرد التصوير الهندي بميزة اشتراك أكثر من فنان في عمل صورة واحدة؛ فأحياناً يصمم فنان الصورة، ويلونها مصور آخر، ويوجد مثال لذلك في مخطوطة راز نامة، فالتصميم من عمل مصور مسلم يدعى شريف، والتلوين من عمل كيسو، وفي أخرى بمخطوطة تيمور نامة نجد أن الذي صمم الصورة مازن والذي لونها توكي، وفي ثالثة يشترك كل من بازوان وشانار في عمل الصورة.

ومن مظاهر اشتراك أكثر من فنان هو أن يعهد إلى كل واحد برسم ما يجيده ويتقنه؛ ففي صورة بمخطوطة أكبر نامة نجد أن التصميم من عمل فنان وهو مسكين، والتلوين من عمل سروان، وبعض الوجوه من

عمل مارز. وهكذا كان يعهد لمن يجيد رسم العمائر برسمها ولمن يجيد رسم الأشجار بعملها ورسم الأشخاص للذي يتقنها.

ويأخذ التصوير بعد عهد جهانجير في الضعف فالانحطاط ولا نحس التكوينات وقوة التعبيرات بل يغلب على الأشخاص الجمود ويختفي التجسيم ولعل ذلك راجع إلى اهتمام شاه جهان إلى العمائر أكثر من اهتمامه بالتصوير ولذلك يتجه التصوير وجهة شعبية والنقل عن القديم.

وتصل هذه المرحلة إلى خاتمتها في عهد أورنجزيب. بقي علينا أن نتحدث عن التأثيرات الأوروبية في التصوير الهندي، وكان أول ظهور للتأثير الأوربي في عهد أكبر، وقد تم ذلك بالنقل عن الصور التي كان يجلبها المبشرون الجزويت معهم أو الهدايا التي طان يجلبها معهم السفراء كما فعل السير توماس وسفير الملك جيمس الأول إلى الهند لعقد معاهدة تجارية. وكان الأباطرة يأمرون المصورين الهنود بتقليد هذه الصور، ويقال إن السير توماس رولم يستطع التمييز بين الأصل الذي أحضره والصورة المقلدة التي رسمها المصور الهندي وكان الإمبراطور شاه جهانجير يأمر بتقليد كل صورة أوربية تصل إليه.

ونشاهد الأثر الأوربي في بعض الصور التي وصلت إلينا في الوجوه ورسم الملابس وطياتها والسحاب بل أن بعض هذه الرسوم تكاد لا تختلف عن الصور الأوربية.